الباب الثالث
النظام السياسي

الفصل الأول
حكومة الرسول في المدينة

المدينة المنورة :

الى شمالي مكة وعلى بعد ثلاثماية ميل ، تقع المدينة ، أو يثرب ، كما كانت تسمى في الجاهلية . تلي مكة في الأهمية بين مدن الحجاز .

تقوم المدينة في واد خصب تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً تكثر فيها العيون والآبار وهذا ما أتاح لها أن تصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزرع . كان في المدينة شعب خليط يقال أن العماليق هم أول من سكنوها وظلوا بها حتى سكنها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين . بنى العماليق في المدينة الدور والقصور(1) .

ثم غزاها اليهود النازحون من الشام ، وقضوا على هؤلاء العماليق(2) .

ولما جاء الاسلام اتخذوا العربية في حياتهم اليومية بينما ظلوا يحتفظون بطقوسهم الدينية . وقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغتهم العبرية (3) سكنت بعض طوائف منهم وطاب لهم المقام . فأقامت بنو قريظة والنضير وسط المدينة وفضل بنو قينقاع داخلها وشمالها الغربي(4) .

أما العرب في المدينة فكانوا من الأوس والخزرج ، قدموا اليها بعد انهيار سد مأرب في اليمن وتفرق أهل اليمن في البلاد(5) .

أوقع اليهود بين الأوس والخزرج حتى قامت الحروب بينهما وحدثت الوقائع والأيام الدامية فكأنها تعاهدتا على الفناء لولا أن نزل الرسول ﷺ بينهم وأصبحوا بنعمة الله أخواناً إذ دخلوا في دينه الحنيف أفواجاً . كانت الزراعة عماد الحياة في المدينة ، وأكثر سكانها

---

(1) معجم البلدان ج 7 ص 425 .
(2) المرجع نفسه ص 427 .
(3) البلاذري ص 474 .
(4) الشعر الغنائي لشوقي ضيف ص 5 .
(5) الكامل في التاريخ ج 1 ص 400 .

يتخذون في ضواحيها الضياع التي تدر عليهم الرزق الوفير ، وقد ضرب حول المدينة سور متين يصد عنها هجمات الاعراب المغيرين(6) .

ويبدو أن هذا السور قد تهدم لأن النبي ﷺ حفر خندقاً حول المدينة في غزوة الأحزاب . بالإضافة الى الزراعة كانت التجارة التي أجادها سكان المدينة فوطدوا العلاقات الطيبة مع بعض الأقاليم المجاورة كالشّام ومصر . إذ كان يتفرع من مدين طريقان يصلان المدينة بهذه البلدان(7) .

كيف نشأت النظم الاسلامية :

بدأ الاسلام في تنظيمه للحياة الاجتماعية منذ أول عهده ، وهذه النظم كانت نتيجة للوحي القرآني ولوقائع السيرة النبوية ، فنظريات الفقهاء في الأحوال الشخصية وتنظيم الأسرة ، والتنظيمات السياسية ، والعسكرية ، والمعاهدات الدولية ، وكل ما يتعلق بالأمور المالية والاقتصادية ، ليست إلا امتداد لبعض الوقائع التي حدثت في عهد الرسول ﷺ وكان له فيها قول ، أو تنبيه ، أو إرشاد ، أو تقرير .

إن كل ما نلمسه في حياتنا العامة والخاصة من مواضيع نتوهم أنها جديدة على الحياة الانسانية المعاصرة ، له أصل بشكل أو بآخر في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة .

فعصر النبي كان منطلقاً خيراً لكل ما عرف في الاسلام من نظم وقوانين . قال عز وجل : ﴿ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾(8) .

لقد وضعت في المدينة أسس المجتمع الجديد من توحيد الله ، الى المجاهرة بالحق ، الى العمل الصالح ، الى المكارم الأخلاقية الى التضامن والبناء في كل شؤون الحياة .

فلقد أصبحت المدينة بفضل الرسول ﷺ ومن ناصره موطن الاسلام ، والمستقر الصالح للدعوة الاسلامية ، ومركز التحول والتغيير في تنظيم المجتمع السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي .

كانت الهجرة تجسيداً لهذه التنظيمات بمعناها الشامل الواسع الذي زادته ممارسة الوقائع تفصيلاً وتوضيحاً . ولقد تمكن المسلمون الأولون من تحويل المرحلة النظرية الى مرحلة عملية تطبيقية .

من هنا نعلم أن الحياة الجديدة والتنظيم الجديد ، بكل ما ورد فيه من تشريع لم يكن إلا امتداداً لما بدأ به الرسول وجماعته في مكة المكرمة .

ومما يبدو أن جو المدينة المنورة كان أكثر ملاءمة للتشريع ، وأكثر مناسبة لاظهار الحركة السياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، في شكل جديد . فلقد قام في يثرب مجتمع جديد

---

(6) معجم البلدان ج 7 ص 428 .

(7) معجم البلدان ج 7 ص 432 .

(8) النحل الآية 44 .

في شكله ومضمونه ، على قواعد أساسية ، تحت قيادة رئيس واحد .

من المدينة المنورة بدأ عهد جديد يرسم للانسان منهجاً سليماً في الحياة ، وينير له الطريق من غبار الجهل وأدران الجاهلية ، بدأ منهج في التغيير نحو الأفضل والأكمل .

الأثر الذي تركته حكومة الرسول في المدينة :

لقد ترتب على قيام الحكومة النبوية في المدينة المنورة آثار بعيدة المدى في جميع الحقول والميادين .

أ ـ الأثر الديني :

قضى الإسلام على الوثنية والشرك بالله ، ودعا إلى عبادة إلّه واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، هو رب العالمين . فأنكر العصبية القبلية ورفض مبدأ الشعوب المختارة ، وبنى أركانه على أعمال إنسانية نبيلة تشعر الانسان بعاطفة صادقة مخلصة .

فرض على الناس إقامة الصلاة في تدبر وخشوع ، وإيتاء الزكاة لرعاية التكافل الاجتماعي ، والحج والصوم بمعانيهما الروحية والاجتماعية .

فرضت الصلاة منذ بدء الدعوة الاسلامية ، فهي ركن أساسي في الاسلام(9) . ولم يعرف الآذان إلا بعد انتقال النبي الى المدينة حيث وجد المسلمون متنفساً لأداء الشعائر الدينية . وكان ﷺ قد أمر بلالاً صاحب الصوت الندي الجميل ليؤذن بالناس للصلاة .

وإقامة الصلاة دعت الى بناء المساجد . فكان مسجد « قباء » بناه الرسول ﷺ في طريقه الى المدينة ، وفي المدينة بنى مسجداً جديداً آخر(10) .

بلغ عدد المساجد التي بنيت في عهد الرسول تسعة مساجد ، اتخذ أكثرها مدارس للتعليم(11) ومما يذكر أن هذه المساجد كانت خالية من الزخرف ، فهي مواضع للعبادة وهذا ما بنيت من أجله .

والاسلام كالأديان السماوية التي سبقته يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولا يفرق بين أحد من الأنبياء ، لأنهم جميعهم يبلغون رسالات الله ولا يخشون أحداً الا هو ، وان اتباعهم يؤلفون أمة واحدة تعبد الله وحده ، ولا تشرك به أحداً .

أما ما أصاب الأديان من تحريف لا بد أن يكون من شروح الاتباع من العلماء والأحبار ولا يد فيه للأنبياء والمرسلين(12) .

ب ـ الأثر السياسي :

كانت الحروب وعدم الاستقرار تسود معظم الجزيرة العربية طوال فترة بعيدة من

---

(9) سيرة ابن هشام ج 1 ص 158 -159 .

(10) المقدمة لابن خلدون ص 283 .

(11) المصدر نفسه ص 283 وفتوح البلدان ص 6 .

(12) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 152 .

الزمن ، حتى ملت القبائل تلك الحياة المشحونة بالمنازعات ، كل هذا الوضع المتأزم جعل الناس يتوقون الى نظام سياسي جديد .

وجاء الإسلام بدعوته الكريمة الانسانية وطلب من الناس الدخول بالرضى والطواعية في دين الله أفواجاً . حتى عم السلام جميع أنحاء الجزيرة العربية فقد وضع الرسول ﷺ منذ هجرته الى يثرب النواة الأولى للحكومة الاسلامية ، بعد أن حصَّنها بالمبادىء العادلة السامية التي كفلت لها الاستمرار والبقاء .

وكان النبي يرأس هذه الحكومة التي بدأت شورية ديمقراطية منذ يومها الأول(13) عملاً بقوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقوله أيضاً : ﴿ وامرهم شورى بينهم ﴾ .

وبدأ عليه السلام يقوم بمهمات الرئاسة فيؤم المسلمين في الصلاة ، ويقودهم في الحرب ويصلح بين المتنازعين منهم ، ويقسم الغنائم والفيء والأنفال . واتخذ كتاباً يملي عليهم ما ينزل من الوحي . أما الجند فلم تكن الحاجة ماسة بعد الى اتخاذ سجلات وإقامة الدواوين .

وأخذت رقعة الاسلام بالتوسع في أطراف الجزيرة الذائية ، وأمر الرسول ﷺ بعض صحبه العلماء بتعليم الناس مبادىء الدين الحنيف ، كما عهد الى البعض الآخر ممن يرى فيهم الكفاءة في الحسابات المالية بجمع المترتبات المالية من البلاد التي دخل أهلها في الاسلام .

وكلنا يعلم ما كان للعصبية القبلية العمياء من تأصل في نفوس العرب آنذاك ، لذلك عمل ﷺ في زرع الاخاء الاسلامي ليشد به أزر المسلمين ، ويلفهم بثوب يجمع كلمتهم ، ويعلي شأنهم ، أمة واحدة لا تمييز ولا تفريق بين جميع أفرادها . وقد أعطاهم المثل الناطق فجعل من سليمان الفارسي أخاً حميماً ، ومن بلال الحبشي مؤذناً صالحاً بنسبه . ووصى وهو على فراش الموت بالتآخي بين المسلمين ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ج ـ الأثر الاجتماعي :

لا شك أن كل ما يجود به الانسان من معطيات فكرية هو في سبيل المجتمع ، ومن أجل نموه وتطوره ، والمجتمعات في شتى أنحاء العالم مرت بمراحل انتقالية عدة . فمن مرحلة البدائية والهمجية ، إلى المرحلة الميتافيزيقية ، الى المرحلة العلمية الحديثة . والاسلام الذي نسّق بين الروح والمادة ، فأعار لفتة كريمة الى التنظيم الاجتماعي في دنيا الانسان الحاضرة ، ولم يفته التذكير في اليوم الآخر يوم الحساب الأكبر .

ومن أبرز الآثار الاجتماعية التي ترتبت على قيام الحكومة النبوية في المدينة ، تحطيم الطبقية وما بينها من فروق ، ومحاربة الرق والعبودية ، ورفع مستوى المرأة في الأسرة وفي المجتمع ، وإلغاء المسكرات وكل ما يؤذي الانسان صحياً ومعنوياً .

كل ذلك حدث بأسلوب نبوي فريد ، فمنذ أن حل رسول الله بمدينة الأنصار طفق بأقواله وأعماله يقضي على التمييز العنصري ، ويهدم قواعد الكبرياء ، ويلغي الفروق الاجتماعية القبلية . واضعاً الموازين العادلة لأسس المساواة الحقيقية بين الناس أجمعين .

(13) المصدر السابق ص 208 .

فأعلن عليه السلام : الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . فالتقوى هي الميزان والمعيار للمفاضلة بين الانسان وأخيه الانسان ، ولا وزن في الاسلام بعد للعرق أو الجنس أو اللون .

من هنا انطلق عليه السلام يتدرج في تحرير الرقيق[14]فكل إنسان له الحق في الحياة حراً كريماً ، وليس لأحد من سلطة عليه في حجز حريته . هذا ما جاهد من أجله رسول الله محرماً استرقاق الحر واستغلال العبد .

ومن وحي تصرف الاسلام في هذا الشأن بدأ الضمير البشري يسير على خطاه المباركة .

إنسجاماً مع هذه التعاليم التي تكرم الانسان ، ولا تفرق بين عناصره إلا بقدر ما يقدم الفرد من التقى والعمل الصالح ، أقر الاسلام للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية ، وجعلها مساوية للرجل في المجال الديني والاجتماعي والانساني ، وقد بلغ من تكريمها وانصافها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القديم ولا في الحديث[15] .

الامارة

لغة : الأمير ، الملك لنفاذ أمره ، بيِّنُ الإمارة والأُمارة والجمع أمراء . وأمر : وَلِيَ . وأَمَرَ الرجل يأمر إذا صار عليهم أميراً . ويقال : أُمِّرَ فلان إذا صُيِّر عَلَماً أي أميراً . والانثى : أميرة والمصدر : الإمرة ، والإمارة . والتأمير : تولية الامارة . وأمير مُؤمَّر : مُمَلَّك[16] .

أما من الناحية الصرفية فكلمة أمير على وزن فعيل ، مبالغة لاسم الفاعل « آمر » كقولك « رحيم » إذا أردت المبالغة لاسم الفاعل راحم . وأمير استعملت بصيغة المبالغة لكثرة ما يصدر الأمير من الأوامر .

إصطلاحاً : تطلق هذه اللفظة على الموظف الكبير الذي يكون مسؤولاً عن إدارة منطقة ، أو عن جزء من إدارتها . وقد استعملت للدلالة على معنى « ملك » في كثير من المواضع ، كما هي الحال في اللغة الفرنسية مثلاً ، حيث تدل كلمة Prince إما عن رئيس الدولة ، وإما على من دونه من أفراد العائلة المالكة . فهي في عرف الأقدمين أقرب ما يكون ، في اصطلاح اليوم إلى ألفاظ : المحافظ أو القائمقام[17] .

وقد تداول العرب لفظ الأمير منذ يوم السقيفة ، فقال الحباب بن المنذر : « منا أمير ومنهم أمير » ثم اشتقوا منها فعلاً فخاطب عمر بن الخطاب الأنصار « إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم »[18] .

---

(14) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 253 وما بعدها .

(15) المصدر نفسه ص 245 .

(16) لسان العرب مادة أمر .

(17) راجع نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي لظافر القاسمي .

(18) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص 7 .

ولما تولى الخلافة استحسن لقب أمير المؤمنين[19] .

وقال الشيخ صبحي الصالح : « لقد كان لقب الأمير من سمات الخلافة حقاً ، إذ كانوا يسمون قادة البعوث باسم الأمير وكان الصحابة يدعون سعد بن أبي وقاص « أمير المؤمنين » لإمارته على جيش القادسية . وعرف الصحابة من رسول الله نفسه إطلاق كلمة الأمير على من يقود جماعة من المسلمين في الغزو أو الحج . وكان الأمير في عهده عليه السلام يؤم الناس في الصلاة بالإضافة الى قيادة الجيش أو إشرافه على شؤون الحجيج »[20] .

الإمامة

لغة : أمّ القوم وأمَّ بهم : تقدمهم . والإمام كل من إئتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين . ورد عن ابن الأعرابي في قوله عز وجل : يوم ندعو كل أناس بامامهم ، قالت طائفة بكتابهم ، وقال آخرون بنبيهم وشرعهم . وقال ابن سيدة : والامام ما ائتم به من رئيس وغيره ، والجمع أئمة . وفي التنزيل العزيز : فقاتلوا أئمة الكفر ، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم . وأممت القوم في الصلاة إمامة . وأتمَّ به أي اقتدى به . والامام : المثال . قال النابغة : بَنَوْا مجد الحياة على إمام .

من هنا قالوا : امام القوم ؛ هو المتقدم لهم ، ويكون الامام رئيساً كقولك امام المسلمين[21] .

وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم مفرداً وجمعاً . قال سبحانه : ﴿ وإذا ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ بكلمات فاتمهنَّ ، قال : إني جاعلك للناس إماماً ﴾[22] وقال عزّ وجل :

﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[23] .

كما وردت بصيغة المفرد لكنها تفيد الجمع . قال سبحانه : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾[24] .

إصطلاحاً : الإمامة هي أسلوب من أساليب الحكم في المجتمع الاسلامي ، خضعت لتعاليم الاسلام ونظمه ومقرراته . وإذا راجعنا أبحاث الفقهاء وجدنا أن كلمة إمام أكثر ما كانت تقترن بموضوع الصلاة ، فالناس يقتدون بإمامهم في كل ما يقول أو يعمل أو يقرر حتى شاع هذا المعنى على ألسنة العامة في مختلف الأجيال .

والإمامة في نظر الاسلام دين ودولة تجمع في آن واحد بين طرفي الدنيا والآخرة لذلك

---

(19) راجع مقدمة ابن خلدون الفصل 32 .
(20) النظم الاسلامية ص 289 .
(21) لسان العرب مادة أمم .
(22) البقرة الآية 124 .
(23) القصص الآية 5 .
(24) الفرقان آية 74 .

عرفها الماوردي : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا »[25] .

وبهذا المعنى يصبح الإمام خليفة النبي ﷺ يخلفه مقتدياً به في حراسة الدين وحمايته ، وفي سياسة الدنيا بكل ما تتطلب من تشريعات وواجبات تلبي حاجة الانسان المسعدة له في حياته الفردية والاجتماعية في آن معاً . وقد تحدث ابن خلدون عن النوع الثالث من نظم الحكم « الإمامة » فقال : « هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها : إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها[26] .

ومهما يكن من أمر فإن الحاكم المسلم ، بأي لقب سماه الناس ، خليفة أو أميراً أو إماماً لا يستطيع أن يتحرر من سلطان الدين الذي يدين به هو والأمة التي بايعته رئيساً عليها .

وبعد هذا العرض السريع تبين لنا أن الألقاب الثلاثة التي أطلقت على رئيس الدولة في الاسلام : الخليفة أو أمير المؤمنين أو الإمام ترتد الى معنى واحد وان كانت نشأة كل منها قد اختلفت تاريخياً عن نشأة الآخرين[27] .

الخلافة ونظمها

الخلافة لغة :

هي مصدر من (خلف) . يقال خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده . ومنها خلفت المرأة . أي تركت وراءها من يخلفها ، فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد . من هنا كان من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة ، وأطلق عليه البعض (إماماً) وفيه اختلاف لأن الامام هو الذي يؤم الصلاة تشبيهاً للرسول واقتداء به وليس كل أمام خليفة .

وأما خليفة فلانه يخلف النبي في أمته ، فيقال خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . وأجاز بعضهم تسميته : خليفة الله ، فهو يخلق النبي في أمته ، وذلك اقتباساً من الخلافة العامة التي للادميين في قوله تعالى : ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾[28] وقوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾[29] . ومنع أبو بكر عنه هذه التسمية قائلا : لست خليفة الله ،

---

(25) الأحكام السلطانية ص 3 .

(26) المقدمة ص 191 .

(27) راجع الامامة والخلافة للسيد رشيد رضى ص 10 وما بعدها .

(28) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 245 .

(29) البقرة الآية 30

ولكني خليفة رسول الله ﷺ ، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب أما الحاضر فلا[30] .

الخلافة اصطلاحاً :

هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[31] .

ومنزلة الخليفة من الأمة كمنزلة النبي من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي . ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . وباعتباره حامي الدين والذائد عنه ، يستطيع أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة ، ويلقي خطبة الجمعة .

شروط الخلافة :

الخلافة هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها ، ويشترط في الشخص المرشح لها أن يكون جامعاً لصفات عينها العارفون بالدين ، وشروط لازمة لها وردت على لسان أكثر المؤرخين ، وهي :

(1) العلم ، (2) والعدالة ،على شروطها الجامعة ، (3) والكفاية ، (4) وسلامة الحواس والأعضاء ومما يؤثر في الرأي والعمل ، (5) الرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح ، (6) الشجاعة والنجدة ، (7) النسب .

هذا النوع من الخلافة هو خلافة اختيارية .

وقالوا عن آخر : الخلافة القهرية وهي التي نالها صاحبها بالطلب والقوة ، ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها[32] .

ويراد بالعلم العلم المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية . وبالعدالة على شروطها الجامعة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك،متجنباً المعاصي .

والكفاية يقصد منها أن يكون قادراً على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، صاحب رأي وتدبير . والرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير مصالح الناس بحكمه وحسن تدبير والنسب ان يكون من قريش . الشجاعة والنجدة : المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو لصيانة حقوق المسلمين ورفع كلمتهم .

---

(30) مقدمة ابن خلدون ص 159 .

(31) المصدر نفسه .

(32) الأحكام السلطانية للماوردي ص 4 والمقدمة لابن خلدون ص 152

نظرية الخوارج في الخلافة :

يمكن تلخيص نظريتهم في الخلافة في أنها حق لكل عربي حر ، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها وإذا جار استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك[33] .

ثم ادخلوا شرطاً آخر ، فشرطوا الاسلام والعدل ، بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم الى صفوفهم كثير من المسلمين غير العرب الأحرار والأرقاء . فجعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين .

نظرية المرجئة :

نذكر بتعريف المرجئة . سميت هذه الطائفة بالمرجئة ، من الأرجاء وهو التأخير ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث[34] . كانوا يتحرجون من إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . فالعقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين .

وقد قالوا بالخلافة لبني أمية لأن أفكارهم تتفق تماماً مع أفكار رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به .

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً ، وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور[35] .

نظرية المعتزلة في الخلافة :

ابتدأت المعتزلة فرقة دينية لا دخل لها في السياسة في أول أمرها ، على عكس ما كان عليه الخوارج والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فتكلمت في الامامة وشرط الامام ، يقول المسعودي :

« يذهب المعتزلة الى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عزّ وجلّ لم ينص على رجل بعينه ، وان اختيار ذلك مفوض الى الأمة تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك[36] .

نظرية الشيعة في الخلافة :

اعتمد الشيعة في إثبات الخلافة أنها حق لهم ، وفي نظرهم أن علياً هو أحق الخلفاء بها . والأدلة الشرعية تفرض مذهب أهل البيت الذين طهرهم الله عز وجل . قال تعالى :

---

(33) مروج الذهب ج 2 ص 110 -111 .

(34) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ص 418 والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 116 .

(35) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم ج 1 ص 418 .

(36) مروج الذهب ج 2 ص 191 وتاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج 1 ص 421 .

﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[37] .

وتخريج هذه الآية ، آية التطهير ، على أيدي الحفاظ ، أخرجها مسلم في صحيحه عن طريق عائشة : خرج النبي ﷺ وعليه فرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[38] وأخرج الحديث الترمذي[39] وأخرجه الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى 303 هـ . من طريق سعد بن أبي وقاص[40] وأخرجه الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة[41] . وأخرجه ابن الأثير عن طريق أم سلمة[42] . وعن أنس بن مالك أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[43] .

كما أخرج الحديث الطبري في ذخائر العقبى ، والحاكم في المستدرك ، وابن كثير في تفسيره ، وابن عساكر في تاريخه ، والشافعي في كفاية الطالب ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ، والألوسي في غالية المواعظ ، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد عن أم سلمة .

والمعتمد الثاني للشيعة هو حديث الثقلين وخطبة النبي ﷺ في عيد الغدير . أخرجه مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم قال :

« لما نزل النبي بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى والحر شديد فأمر الدوحات . ونادى الصلاة جامعة فتجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال : إن الله تعالى أنزل إليّ : ﴿ بلّغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ . وقد أمرني جبريل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ، ووصي ، وخليفتي ، والإمام بعدي ، فسألت جبريل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة اقبالي عليه حتى سموني أُذُناً ، فقال تعالى :

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُنُ خير لكم ﴾[44] ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت ، معاشر الناس فإن الله قد نصبه ولياً واماماً ، وفرض طاعته على كل أحد ماضٍ حكمه جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم

---

(37) سورة الأحزاب الآية 33 .

(38) سورة الأحزاب الآية 33 وصحيح مسلم ج 4 ص 127 .

(39) الترمزي ج 4 ص 304 .

(40) الخصائص ص 4 .

(41) الخطيب ج 9 ص 127 .

(42) أسد الغابة ج 5 ص 521 .

(43) تفسير ابن جرير ج 7 ص 22 .

(44) التوبة الآية 61 .

من صدقه ، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي أمامكم .

ثم يقول فيها : « افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا مشابهة ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضده وفعلكم : ان من كنت مولاه فعلي مولاه وموالاته من الله عز وجل أنزلها عليّ . الا وقد أديت ، الا وقد اسمعت ، الا وقد أوضحت ، الى آخر خطبته التي رواها الثقاة من أبناء الأمة . ومما جاء في خطبته عيد الغدير حديث الثقلين . يقول الحديث :

« إني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله الممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما[45] .

علامات الخلافة :

الخلافة الحقة هي تطبيق السنة النبوية تطبيقاً صحيحاً شاملاً ، وهي ترجمة أقوال النبي أعمالاً . وكم هو جميل في كل عصر ومصر ان نوحّد بين القول الحكيم والعمل العظيم . أما العلامات الخارجية التي تشبهوا بها الخلفاء بالنبي فهي :

أ ـ البردة :

بردة النبي هي لباسه الخارجي يلبسها النبي في استقبالاته الرسمية . ومما يروى أنه ﷺ أعطاها الى كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف . وكان كعب قد هجا النبي وفر هارباً من وجه المسلمين . ولما تم فتح مكة على أيدي المسلمين كتب اليه أخوه بجير بن زهير ليعود إلى حضرة النبي تائباً مؤمناً والنبي يصفح عنه ويسامحه قال بجير: «وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فإن كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً»[46]. فجاء كعب المدينة وسلم نفسه الى النبي ومدحه بقصيدة رائعة مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

---

(45) راجع ـ صحيح مسلم ج 7 ص 122 .
و ـ سند أحمد ج 2 ص 14 .
وتاريخ البغدادي ج 8 ص 443 .
وتفسير ابن كثير ج 2 ص 486 .
و ـ سنن الترمذي ج 2 ص 308 .
و ـ مصابيح السنة ج 2 ص 204 .
و ـ المستدرج ج 4 ص 109 .
هذا ويطول بنا الشرح عن هذا الحديث قال ابن حجر في الصواعق المحرقة : ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً .
كما روى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير ، وروى له قوله :
يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

(46) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 129 .

فأكرمه النبي ومنع القوم أن يأذوه وخلع عليه بردته . وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان ، ظناً منه أن يوهم الناس بحقه بالخلافة ، وقد دفع ثمنها أربعين ألف درهم أي ما يعادل ثمانين ألف ليرة لبنانية وتوارث البردة بعد معاوية الخلفاء الأمويون والعباسيون ، وهي الآن من جملة المخلفات النبوية الموجودة في السراي القديمة في الآستانة .

ب ـ الخاتم :

إتخذه الخلفاء بعد النبي ﷺ تشبهاً به ، فقد كان يكتب الى كسرى وإلى قيصر يدعوهما الى الاسلام فقيل له أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » . ومما يروى أن هذا الخاتم انتقل الى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، وقد وقع من يد عثمان في بئر إريس ولم يعثر عليه بعد ذلك . فاصطنع عثمان خاتماً مثله . وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلاها بالطين أو بالمِداد أو الشمع بعد طيها ، وما زال هذا الخاتم يستعمل حتى العصر العباسي . يذكر البلاذري أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم مقلد الملوك الفرس ، فجعل عدة خواتم منها خاتم للسر وخاتم الرسل وخاتم السجلات والاقطاعات وخاتم الخراج[47] .

وبقي ديوان الخاتم الذي استحدثه زياد معمولاً به حتى أواسط العصور العباسية فأسقط وتحولت مباشرة الأعمال الى الأمراء والوزراء وغيرهم . . . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي بدل الفضل أخيه قال لأبيهما يحيى :

« يا أبت إني أردت أن أحول الخاتم من يميني الى شمالي » وهو يعني الوزارة .

ولما نشأت السلطات جعل السلاطين علامة السلطة مثل علامة الخلافة وسموها (الطغراء) وهي نقشة تكتب بخط عريض وفيها ألقاب الملك .

والدولة السلجوقية تسمى ديوان الانتشاء ديوان الطغراء . والطغرائي الشاعر المعروف كان وزيراً للسلطان السلجوقي وكان خطه جميلاً ، وكان يكتب تلك الطغراء فلقبوه بها وهو أول من كتبها .

ومما يروى أن الخلفاء نقشوا على خواتمهم عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظاً يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » . وجرى على ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . من هذه العبارات : ختم المأمون نقش عليه : « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » والواثق كتب على خاتمه : « الله ثقة الواثق » والمتوكل كتب : « على الله توكلت » . والمعتمد : « إعتمادي على الله وهو حسبي »[48] .

---

(47) أنظر فتوح البلدان البلاذري .

(48) راجع المقدمة لابن خلدون ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ونظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي لظافر القاسمي .

ج ـ القضيب :

وهو أيضاً من علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب ، وظل الأمر على ذلك في بني أمية وبني العباس . هذه هي العلامات السائدة للخلافة في ذلك العصر .

أما عن شارات الخلافة فكانت ثلاث أيضاً .

أ ـ الخطبة : كان يدعى للخلفاء على المنابر ، وقد كانوا هم أنفسهم يتولون الصلاة بعد اختتامهم فروض الصلاة فيدعون للنبي ﷺ والصحابة . ولما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال صار الولاة يتولون إمامة الصلاة في ولاياتهم ويختمونها بالدعاء للخلفاء .

ب ـ السكة : ومن شارات الخلافة الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة ، ويقال لها السكة ولا بد منها للدولة .

ج ـ الطراز : وذلك أن يرسم على ثوب الخليفة أو السلطان علامات تختص بهم بخيوط من ذهب وهو أمر معروف في قديم الدول من عهد الفرس والروم . هذه الألبسة الملوكية تدل ان لابسيها من أهل الدولة .